

أثر التصوف في المديح النبوي في العصر المملوكي
أثر التصوف في المديح النبوي في العصر المملوكي



علي الحوامده
جامعة عجلون الوطنية
rashedalhawamdeh502@gmail.com

*(Corresponding author) e-mail: rashedalhawamdeh502@gmail.com

الملخص

أثر التصوف في المديح النبوي في العصر المملوكي
الملخص
هدفت الدراسة إلى البحث في أثر التصوف في المديح النبوي تحديداً في القرن السابع الهجري في فترة العصر المملوكي. وتمثل هذه الحقبة الزمنية مصدراً غنياً للتصوف الذي انتشر في فترة الحروب الصليبية. وبدأ اتجاه المدائح النبوية في الاتصال بالتصوف. وقد اتخذ الشعر المتأثر بالتصوف بنسق يبنى الشخصية المأثلية من وجهة نظر الصوفية. وملئت المدائح النبوية شكلاً فنياً وأدبياً ومعرفياً يغذي هذه الروح التي انتشرت في تلك الفترة. اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي. وقدمت البحث في مقدمة وثلاثة مباحث درست التصوف من حيث المفهوم والنشأة. وتناولت المدائح النبوية في العصر المملوكي. ودرست أثر التصوف في شعر المدائح النبوية في العصر المملوكي وبيّنت الدراسة أن العصر المملوكي عصر ازدهار المدائح النبوية. وأن المؤثرات الصوفية التي أثرت فيه كان له دور كبير في إثراء التجربة الشعرية حيث تمحورت حول ركيزة دينية أساسية.
الكلمات المفتاحية: التصوف، المدائح النبوية، العصر المملوكي.

ABSTRACT

Abstract: The purpose of the study is to investigate the impact of Sufism on the praise of the Prophet, specifically in the seventh century during the Mamluk era. This period of time represents a rich source of Sufism that spread during the Crusades, and the trend of praise of the Prophet began to connect with Sufism. Poetry influenced by Sufism took on a style that builds the ideal character from the Sufi point of view, and praise of the Prophet represented an artistic, literary and cognitive form that nourished this spirit that spread during that period. The study adopted the descriptive analytical approach, and presented the research in an introduction and three chapters that studied Sufism in terms of concept and origin, and dealt with praise of the Prophet in the Mamluk era, and studied the impact of Sufism on the poetry of praise of the Prophet in the Mamluk era. The study showed that the Mamluk era was an era of prosperity of praise of the Prophet, and that the Sufi influences that affected it had a major role in enriching the poetic experience as it revolved around a basic religious pillar.

Key Words: Sufism, Praise of prophet, Mamluk Era.

Article history:

Submission Date: 14/11/2024

Reviewing Date: 12/01/2025

Revision Date: 25/05/2025

Acceptance Date: 22/04/2025

Publishing Date: 01/06/2025

DOI:

Keywords:

Sufism, Praise of prophet, Mamluk Era

Funding:

This research received no specific grant from any funding agency in the public, commercial, or not-for-profit sectors.

Competing interest:

No competing interests exist.

Cite as:

الحوامده ع. (2025) أثر التصوف في المديح النبوي في العصر المملوكي. *Journal of Research and Studies* 25 (2A).



© The authors (2025). This is an Open Access article distributed under the terms of the Creative Commons Attribution (CC BY) license, which permits non-commercial re-use, distribution, and reproduction in any medium, provided the original work is properly cited. For commercial re-use, please contact admin@jpu.edu.jo.

أثر التصوف في المديح النبوي في العصر المملوكي
الملخص

د. علي عبد الكريم خليف الحوامدة

Aliabdalhawamdeh@yahoo.com

Dr. Ali Abdelkareem Khlaif Alhawamdeh

هدفت الدراسة إلى البحث في أثر التصوف في المديح النبوي تحديدًا في القرن السابع الهجري في فترة العصر المملوكي، وتمثل هذه الحقبة الزمنية مصدرًا غنيًا للتصوف الذي انتشر في فترة الحروب الصليبية، وبدأ اتجاه المدائح النبوية في الاتصال بالتصوف، وقد اتخذ الشعر المتأثر بالتصوف ينسق بيني الشخصية المثالية من وجهة نظر الصوفية، ومثلت المدائح النبوية شكلًا فنيًا وأدبيًا ومعرفيًا يغذي هذه الروح التي انتشرت في تلك الفترة. اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، وقدمت البحث في مقدمة وثلاثة مباحث درست التصوف من حيث المفهوم والنشأة، وتناولت المدائح النبوية في العصر المملوكي، ودرست أثر التصوف في شعر المدائح النبوية في العصر المملوكي وبينت الدراسة أن العصر المملوكي عصر ازدهار المدائح النبوية، وأن المؤثرات الصوفية التي أثرت فيه كان له دور كبير في إثراء التجربة الشعرية حيث تمحورت حول ركيزة دينية أساسية.

الكلمات المفتاحية: التصوف. المدائح النبوية. العصر المملوكي.

Abstract: The purpose of the study is to investigate the impact of Sufism on the praise of the Prophet, specifically in the seventh century during the Mamluk era. This period of time represents a rich source of Sufism that spread during the Crusades, and the trend of praise of the Prophet began to connect with Sufism. Poetry influenced by Sufism took on a style that builds the ideal character from the Sufi point of view, and praise of the Prophet represented an artistic, literary and cognitive form that nourished this spirit that spread during that period. The study adopted the descriptive analytical approach, and presented the research in an introduction and three chapters that studied Sufism in terms of concept and origin, and dealt with praise of the Prophet in the Mamluk era, and studied the impact of Sufism on the poetry of praise of the Prophet in the Mamluk era. The study showed that the Mamluk era was an era of prosperity of praise of the Prophet, and that the Sufi influences that affected it had a major role in enriching the poetic experience as it revolved around a basic religious pillar.

Key Words: Sufism. Praise of prophet. Mamluk Era.

الحمدُ لله الذي أنشأ الكونَ الفسيحَ تنفيذاً لإرادته، وقرن سعادة الأنام بعبادته، والفوز بنعيم جنان الخلد، بامثال أوامره، وطاعته، والصلاة والسلامُ على خير العرب والعجم سيدنا محمد النبي الأمين، المرسل بلسان عربي مُبين، وعلى آله أولي النهى، ومصايح الدجى، وصحبه الأخيار أعلام التقى... وبعد

مثل الرسول (صلى الله عليه وسلم) أبرز شخصية عُرفت في تاريخ البشرية؛ لما حباه الله من خصال وشمائل ومناقب كثيرة، فضلاً عن تأييده له ورعايته في كل محطات حياته، منذ ولادته إلى أن توفاه الله - عز وجل-، هذه الشخصية الفريدة ملأت الدنيا وشغلت الناس كما لم تملأها شخصية أخرى وشغلت الناس كما لم تشغلهم أي شخصية أخرى، ولأن الشعر هو لسان حال العرب على مر العصور السالفة فلم يكن مستغرباً أن يجري ذكر شخصية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على هذا اللسان، فنهض الشعر بذكر وتخليد مآثره وسيرته العطرة.

وبعد العصر المملوكي عصر المدائح النبوية كمّا وكيفاً؛ إذ كثر فيه المديح النبوي كثرة لم يشهدها عصر من العصور السابقة وتسابق كثير من الشعراء للنظم فيه، وظهرت الدواوين الخاصة بمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثل: ديوان أهنى المنايح في أسنى المدائح للشهاب الحلبي، والمطالع الشمسية في المدائح النبوية وغيرهما، وصاحب هذه الكثرة تطوير في بناء قصيدة المديح النبوي الفني، وكذلك مضمونها⁽¹⁾.

وكثرة المدائح النبوية التي ظهرت في العصر المملوكي ساهمت فيه مجموعة من العوامل لعلّ من أبرزها الحروب الصليبية وانتشار التصوف، وقد أشار لهذا السبب غير واحد من الدارسين الذين تعرضوا للمدائح النبوية. فقد ذكر أحمد بدوي أنه في هذا العصر سادت الحروب باسم الدين، ووقف الشعر يدافع عن صاحب هذا الدين الذي يهاجمه الإفرنج، فظهر عند كثير من شعراء هذا العصر ميل إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتمجيده بقصائد طويلة⁽²⁾. ويقترّب من الرأي السابق رأي شوقي ضيف

⁽¹⁾ لامعي، أحمد، المدائح النبوية في عصر المماليك البحرية. أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة القديس يوسف، بيروت، 2007م، ص 577.

⁽²⁾ بدوي، أحمد، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، د.ت، ص 516.

القائل: "ويحتدّ المديح النبوي مع الحروب وحروب التتار؛ إذ أحسنّ الشعراء - بحق- أنها حرب موجهة للإسلام ورسوله الكريم، فأخذوا يشيدون به وينوهون بمعجزاته وسيرته الذكية"⁽¹⁾.

ولعل من أكثر العصور التاريخية والأدبية التي كثر ونضج فيها المديح النبوي هو العصر المملوكي (648هـ، 923م) كنتيجة لانتشار التصوف وشيوعه، ومن هنا تأتي هذه الدراسة لتناول أثر التصوف في المديح النبوي في العصر المملوكي، حيث ترسخت أركان المديح النبوي، واكتملت قواعده، كما أنّ هذا العصر شهد غزارة لهذا الغرض.

يتناول هذا البحث أثر التصوف في المديح النبوي في العصر المملوكي في القرن السابع الهجري، ويتضمن التعريف بالتصوف ونشأته في العصر المملوكي، والمدائح النبوية، وأثر التصوف في المديح النبوي، فخاتمة، وكذلك يتضمن أهم النتائج والمصادر والمراجع التي تمت العودة إليها في متن البحث.

مشكلة الدراسة وأسئلتها

دارت حول المدائح النبوية دراسات كثيرة، ناقشت المدائح النبوية بشكل عام، وعرجت على الموضوع في العصر المملوكي دون إبراز أثر التصوف في المدائح النبوية، من هنا برزت الحاجة لدراسة أثر التصوف في المدائح النبوية في العصر المملوكي، من خلال الإجابة عن الأسئلة التالية:

- ما مفهوم التصوف وتطوره ونشأته في العصر المملوكي؟
- ما المدائح النبوية وخصائصها في شعر العصر المملوكي؟
- ما أثر التصوف في المدائح النبوية في العصر المملوكي؟

أهمية الدراسة

تبلغ الدراسة أهميتها من سيرة الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ومناقبه التي احتفى بها الشعراء، وكذلك التصوف الذي انتشر في تلك الفترة وبخاصة في ظل الحروب الصليبية، وهذا يحتاج إلى مراجعة وكشف عن أثر التصوف في المدائح النبوية في العصر المملوكي.

منهج الدراسة

⁽¹⁾ ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي: عصر الدول والإمارات: الشام، دار المعارف للطباعة، القاهرة، 1990م، ط2، ص277.

استعانت الدراسة بالمنهج الوصفي التحليلي في تفسير الظواهر وتحليلها. أما مصادر البحث ومراجعته، فقد انقسمت على القديم منها والمحدث، فشكّلت دواوين الشعر العامة والخاصة منبعًا للبحث، يضاف إلى ذلك بعض الكتب التاريخية والتراجم. وتم تقسيم الدراسة إلى مقدمة، وثلاثة مباحث. تناول الأول: المفهوم والنشأة للتصوف، ودرس الثاني: المدائح النبوية في العصر المملوكي، وأفرد الأخير لدراسة: أثر التصوف في شعر المدائح النبوية في العصر المملوكي.

المبحث الأول: التصوف (النشأة والمفهوم)

1. نشأة التصوف:

شهد التصوف الذي ظهر في أواخر القرن الهجري الثاني وأوائل القرن الثالث حركة ثرية ونشطة، أنتجت كثيرًا من الآراء والمذاهب خلال القرنين الثالث والرابع. حيث تطور التصوف ابتداءً من القرن الثالث الهجري إلى " علم شرعي قائم على الجمع بين الفقه والأحوال الباطنية"⁽¹⁾، واتجه منذ النصف الأول من هذا القرن اتجاهًا تربويًا ظهرت من خلاله طرق صوفية متعددة حملت أسماء مؤسسيها، وعُدت هذه الاتجاهات الصوفية مرتكزات أساسية للطرق الصوفية التي ظهرت فيما بعد⁽²⁾.

وكان التصوف يهدف إلى بناء شخصية خُلقية مثالية من وجهة نظر الصوفية. وقد تعددت المسالك في ذلك، وبدت آثاره واضحة في الشعر، حيث كانوا يرددونه في خلواتهم وأدعيتهم ومناجاتهم التي لم تخل من

⁽¹⁾ القويدري، الأخضر، *الفكر التربوي الصوفي: قراءة في التراث التربوي عند أعلام مشايخ التصوف الإسلامي*، دار نينوى للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، 2010م، ص 13.

⁽²⁾ المرجع السابق، ص 15.

مسحة جمالية ذات قيمة أدبية، وذات تأثير بليغ في نفوس من يسمعونها أو يقرأها⁽¹⁾.

وإن التصوف مدرسة من المدارس الإسلامية التي تحتاج إلى البحث في المفهوم والمعرفة، لأنها تشعبت فيها الاختلافات والآراء، وتهدف هذه الدراسة إلى معرفة مفهوم التصوف ومواقف الفرق الإسلامية منها، كما أن الدراسة تسعى إلى قراءة نماذج من الشعر الصوفي.

وفي دراسة بعنوان (التصوف الإسلامي: المصادر والمؤثرات)، يرى الدارس أن أي ظاهرة اجتماعية لا يتسنى فهمها إلا في ضوء الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية المختلفة التي أهلت لنشوء هذه الظاهرة وتطورها، ومن ثم كان اهتمام العلماء العرب المسلمين والمستشرقين بتحديد العوامل التي كانت وراء نشأة التصوف ولكثرة ما شاب التصوف من عناصر غريبة عن الإسلام، منها الهندي والفارسي واليوناني والمسيحي، فقد أدى ذلك إلى اعتقاد البعض من العرب والمستشرقين أن نشأة التصوف ومصدره يرجع إلى هذه العناصر الدخيلة عن الإسلام وغيرها من العوامل الخارجية بعيدة الصلة عن الإسلام، والحقيقة أن تاريخ التصوف في الإسلام جزء لا يتجزأ من تاريخ الإسلام نفسه، ومظهر من مظاهره وما أحاط به من ظروف وما دخل فيه من شعوب، وليس شيئاً اجتلب من الخارج دون أن يكون له صلة بالدين الإسلامي وروحه وتعاليمه⁽²⁾.

والتصوف له طريق طويل في الدراسة والبحث، فهو "موضوع واسع ومجال رحب لدراسات وبحوث شتى، فمنها دراسات لغوية للشعر الصوفي، ووجدانية للحب الصوفي وتاريخيه لمذاهبه وشخصياته إضافة إلى تناوله في الدراسات الدينية عمومًا"⁽³⁾. والصوفية لها اتجاهات دينية ومعرفية وفلسفية يصعب أن تنحصر في جزء واحد، لأنها تبحث في الدين وعلاقة الفرد بالتدين بالتجربة الصوفية الروحية في المقام الأول.

2. مفهوم التصوف:

⁽¹⁾ عبد الحكيم، حسان، *التصوف في الشعر العربي: نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري*، دار العرب للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2010م، ص 233.

⁽²⁾ ولد البشير، محمد، *التصوف الإسلامي المصادر والمؤثرات، دورية كان التاريخية، مؤسسة كان، الكويت، العدد (33)، 2016م، 84-89.*

⁽³⁾ الصالحي، أنعم، *التجربة الصوفية: دراسة في ضوء العلوم العصبية، مجلة المجمع العراقي، المجلد (4)، العدد (44)، 1997م، ص 10.*

إن المفهوم مدخل مهم لمعرفة معنى الصوفية وتحديد دلالة هذه الكلمة، والمفهوم بالنسبة للصوفية يصعب تحديده بدقة لتعدد المصطلحات التي تدخل ضمن التصوف. " والتصوف من الموضوعات التي تتطلب جهدًا كبيرًا للفصل بين كل ما فيه من مصطلحات ومفاهيم باعتبار حقيقته التي تقوم على الإيثار والتضحية"⁽¹⁾. فالتضحية بما في الدنيا أثار لما يوعد به الإنسان في الآخرة.

وأما كلمة الصوفية أو التصوف فإن هنالك اختلاف بين الدارسين على أصل هذه الكلمة. فقد نسب السراج الطويسى الصوفية إلى لبس الصوف من الثياب، فعروفاً بذلك؛ لأنّ الصوفية "نسبوا إلى لباسهم وهو الصوف ويذكر أن هذا اللباس هو لباس الأنبياء والصالحين فالاسم مشتق من اللباس، الذي يتعلق بالهيئة التي يكون عليها الإنسان، وما فيه من زهد في متع الدنيا"⁽²⁾.

وينسب بعضهم الصوفية والتصوف إلى الطاقة النورانية في نفوس الصوفية فيه صفاء السرائر ونقاء الأفعال. وكذلك من صفاء القلب للخالق جل وعلا. والصوفية هو في الصف الأول بين يدي ربهم سبحانه وتعالى. أو ينسبونهم إلى أهل الصفة الذين كانوا في زمن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وهم جماعة كانوا يحرصون على الذكر والمذاكرة⁽³⁾.

ويذكر بعضهم أن التصوف كلمة جامدة ليس لها قياس في اللغة⁽⁴⁾ يختص بطائفة الصوفية. وهذا بخلاف ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية التي جعلت الكلمة مصدرًا للفعل الخماسي كما مرّ معنا في السطور السابقة.

وأما ابن الجوزي فيرى أن الصوفية تتصل بزمن قديم يعود إلى الجاهلية. فينسب الصوفية إلى قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة، انقطعوا

⁽¹⁾ خفاجي، عبدالمنعم، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1994م، ص33.

⁽²⁾ الطويسى، السراج (ت: 378هـ)، اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي (تحقيق: كامل الهنداوي)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2001م، ص 23-24.

⁽³⁾ الكلاباذي، أبو بكر (ت: 384هـ)، التعرف لمذهب أهل التصوف (تحقيق: أحمد شمس الدين)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج3، 1993م، ص 9-10.

⁽⁴⁾ القشيري، النيسابوري (ت: 261هـ)، الرسالة القشيرية في علم التصوف (تحقيق: معروف زريق وعلي عبد الحميد)، دار الخبرة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1993م، ص279.

إلى الله عز وجل وسكنوا عند الكعبة، فمن سار على طريقهم ينعت بالصوفية، كما أن من دلالاته في المعنى لبس الصوف⁽¹⁾. إن اللبس الخشن يدل على الابتعاد عن التمتع بملذات الحياة والانقطاع عنها، لذلك كان كثير من المتحدثين عن الصوفية والتصوف يعودون لهذا المعنى.

ويذهب بعض الدارسين إلى صعوبة تحديد مفهوم التصوف تحديداً دقيقاً فقد "اختلفوا في فهمهم لمعنى التصوف حتى إن الشيخ منهم يورد جملة من التعريفات فمنهم من أوصلها لأكثر من عشرين تعريفاً، ومنهم من جاوز بها الخمسين أو المائة⁽²⁾.

ومفهوم التصوف ارتبط بكل صوفي بصورة منفصلة عن الآخرين، فقد "ظهر عند الصوفي الواحد أكثر من تعريف، ثم توسع مفهوم التصوف بالتدرج حتى وصل إلى حد المبالغة والإفراط، ثم غذته بمرور الزمان مواد ذوقية واتسعت من جراء ذلك ساحة التصوف والتقط الصوفية من المصادر المختلفة أقوالاً وأضافوها إلى التصوف، فتغير مفهومه تدريجياً لهذا السبب، وتبدل تعريفه وتحديده في كل عصر، ووصفه كل شيخ وإمام من الصوفية بوصف خاص⁽³⁾.

لقد اختلفت الآراء وتعددت في تعريفات التصوف ومرجع ذلك أن التصوف حركة روحية تخضع لذات الفرد، فتختلف من فرد لآخر لذا يصعب تأطيرها وتقنينها، بوضع تعريف جامع مانع له، كعلم من العلوم الأخرى، واضحة الأسس والمعايير، وقد جمع نيكلسون ما يقرب من ثمانين تعريفاً كلها في قرنين ونصف القرن (أول تعريف لمعروف الكرخي، وآخرها لأبي سعيد أبي الخير) ولكن "أيا من هذه التعريفات منفرداً لا يفي بالغرض، ولا يعطينا الصورة المتكاملة عن حقيقة التصوف، ولكنها في مجموعها تدل عليه، وتشير إلى حقيقته، وتبين غاياته وأهدافه"⁽⁴⁾

⁽¹⁾ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن (ت: 597هـ)، تلبس إبليس، دار الفكر العربي للنشر، بيروت، لبنان، 2001م، ص 145.

⁽²⁾ العشبي، علي، التصوف والعرض الصوفي، مجلة جرش للبحوث والدراسات، جامعة جرش، المجلد (3)، العدد (2)، 2003م، ص 46.

⁽³⁾ العشبي، سعاد، ماهية التصوف: دراسة نقدية تحليلية، مجلة كلية التربية، جامعة عين شمس، المجلد (1)، العدد (1)، 2015م، ص 22.

⁽⁴⁾ شعبان، محمد، التصوف الإسلامي: مدارس، رموزه، أدبه. مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2016م، ص 7.

والتصوف " ليس من الممكن حده، ووضع تعريف جامع له، لأنه في جوهره إشارات وعطايا وهبات، يعرفها أهلها من بحر العطاء، الذي لا ينتهى مدده⁽¹⁾ " فكل متصوف يرى التصوف من منظوره، وقد مثل الصوفي جلال الدين الرومي ذلك بـ " فيل محجوز في حجرة، أو صندوق خشبي، وفي جدرانه بعض الثقوب الصغيرة، فإذا نظر بعض الناس فى ثقب مواجه لخرطوم الفيل، فإنهم يقولون إن بداخل هذا الصندوق أنبوبة ضخمة غليظة، والبعض الآخر ينظر خلال ثقب في مواجهة جانب الفيل وبطنه، فيذكرون أنهم يرون بالصندوق كرة عظيمة مملؤه، وهكذا فإن كل ناظر خلال ثقب من الثقوب في الصندوق يقرر حقيقة أخرى، غير تلك التي رآها الناظر الآخر"⁽²⁾. وهم بذلك يرونه كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، والترفع عن الحياة؛ فأوله علم، وأوسطه عمل، آخره موهبة.

المبحث الثاني: المدائح النبوية في العصر المملوكي

1. تطور المدائح النبوية في العصور المختلفة:

يواكب الأدب ما يمر به الإنسان من تأثيرات مختلفة فالشعر الجاهلي صوّر حياة الجاهليين بحلهم وارتحالهم، وأيامهم وصراعاتهم، وأفكارهم ومعتقداتهم. وكان دخول عرب الجاهلية في الإسلام شاهداً على تحولات فكرية واجتماعية واقتصادية واكبها الشعر، وتأثر بها، وأدى محوراً هاماً في موضوعات حرصت على تقاليد الشعر الجاهلي. وهكذا الحال في دور الشعر على مر العصور يسارع إلى التعبير عن كل جديد. فالشاعر يعبر عن نفسه ولا ينطق بالشعر إلا عند شعوره بالواقع وما يحيط به بما في ذلك

⁽¹⁾ طعيمة، صابر، التصوف والتفلسف، الوسائل والغايات، مكتبة مدبولي للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2005م، ص13.

⁽²⁾ شعبان، محمد، التصوف الإسلامي: مدارس، رموزه، أدبه، مرجع سابق، ص 7-8.

المناسبات والأحداث التي تدفعه إلى أن يبوح بما في داخله شعراً⁽¹⁾، مع ما يملك من قدرات فنية وتخيلية ترفع الشعر عن لغة المخاطبة. فالشعر صورة الفن والحياة.

وبدخول الإسلام وانتشاره في الجزيرة العربية، سطع نجم النبوة، فأحب المسلمون رسولهم الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم)، فسمع القاصي والداني بذلك الحب الذي تسابق فيه الصحابة يعبرون عن حبهم لرسول الله الذي امتدحه رب العزة (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)⁽²⁾، وأكرمه جل وعلا باللطف والرحمة، وأبعد عنه غلظة القلب (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)⁽³⁾. وبدأ مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) مبكراً حيث كان في مرحلة ما قبل الهجرة النبوية يركز على الأحداث الجارية في العصر الجاهلي، ثم تحولت في النهاية إلى امتداح القيم الدينية⁽⁴⁾، بعد أن تشبعت نفوس المسلمين بالإيمان بالله، ومعرفتهم لما يؤديه الرسول (صلى الله عليه وسلم) من خدمة للناس في نشر دين الإسلام وتخليصهم من الوثنية.

ومن أقدم ما مدح به النبي (صلى الله عليه وسلم) قصيدة الأعشى التي يقوم في مطلعها:

وَعَادَكَ مَا عَادَ السَّلِيمَ الْمُسَهَّدَا	أَلَمْ تَغْنَمْضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةً أَرَمَدَا
تَنَاسَيْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ خُلَّةً مَّهْدَا	وَمَا ذَاكَ مِنْ عِشْقِ النِّسَاءِ وَإِنَّمَا

ولكن هذا ليس من المدائح النبوية⁽⁵⁾؛ فزكي مبارك لا يقرّ بأن هذا المدح داخل في متن المدائح النبوية؛ لأنّ الأعشى لم يقل هذا الشعر وهو صادق النية في مدح الرسول، وإنما كانت محاولة أراد بها التقرب من نبي الإسلام، وآية ذلك أنه انصرف حين صرفته قريش⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ غراب، سعيد، شعر المناسبات الدينية ونقد الواقع المعاصر، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007م، ط1، ص9.

⁽²⁾ سورة القلم: آية 4.

⁽³⁾ سورة آل عمران: آية 159.

⁽⁴⁾ عيد، صلاح، مديح الرسول في فجر الإسلام، دار المعرفة، القاهرة، 1975م، ص9.

⁽⁵⁾ مبارك، زكي، المدائح النبوية، دار الحجة البيضاء، القاهرة، د.ت، ص 18-19.

⁽⁶⁾ المرجع السابق، ص19.

ويرى المتتبع لنشؤ مدح الرسول أنه اتصل بعلاقته مع قومه من المسلمين الذين رأوا فيه صفات القائد، فمدحه الشعراء المسلمون الذين آمنوا به ودافعوا عن دعوته وأصبحوا تحت راية الإسلام كحسان بن ثابت وكعب بن مالك تدفعهم المحبة لشخص الرسول والإعجاب بصفاته ودفاعهم عن رسالته ودعوته⁽¹⁾. ومن غير المسلمين ما جاء على لسان الأعشى - كما ذكرت سابقاً- وامتازت أشعارهم بطابعها التقليدي في الأسلوب الفني، فاتبعوا أساليبهم الجاهلية إلى أن أخذ التأثير الديني يظهر في النفوس ويؤثر في الأداء الفني.

وبدأ المديح النبوي يزيد ويطرد من انتقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة المنورة، فقد شهدت هذه البقعة المباركة ميلاد دولة، وكانت المدة الزمنية فيها أكثر من مدة الدعوة في مكة المكرمة. وتغنى الشعراء بصفات الرسول، وكان لهم مكانة هامة في الدفاع عن الإسلام، وإعلاء كلمة الله. وتميز المديح في هذه الفترة بتأثير الدين مع بقاء الطابع التقليدي في الظهور⁽²⁾، وبرز شعراء المدينة من الأنصار ومنهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة، ويغلب على شعر هذه المرحلة المباشرة في مواجهته الأحداث المتسارعة، ولم يكن الشعراء مشغولون بالصقل والتجويد في أشعارهم لأنهم كانوا في مواجهات مستمرة ومتواصلة مع الأعداء⁽³⁾.

وكان لبعض القصائد إشكالية في تحديد نشأتها بسبب مجموعة من العوامل الزمنية بين الجاهلية والإسلام والفنية بالتزامها الطابع القديم وموضوعها الإسلامي وقصيدة حسان بن ثابت الهمزية المشهورة، والتي مطلعها⁽⁴⁾:

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءُ إِلَى عَذْرَاءَ مَنَزِلُهَا خَلَاءُ
دِيَارٍ مِنْ بَنِي الْحَسْحَاسِ قَفْرٌ تُعَقِّيهِا الرَّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ

⁽¹⁾ مخيم، صالح، المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1986م، ص15.

⁽²⁾ سالم، محمود، المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، دار الفكر المعاصرة، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ص66.

⁽³⁾ عيد، صلاح، مديح الرسول في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص13-14.

⁽⁴⁾ ابن، ثابت، حسان (ت: 674م)، ديوانه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1994م، ص 17

وَكَاثَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنِيسُ
فَدَعَ هَذَا وَلَكِنْ مِّنْ لَطِيفٍ
لِشَعْنَاءِ الَّتِي قَدْ تَيَّمَّتْهُ
كَأَنَّ حَيَاةً مِّنْ بَيْتِ رَأْسٍ
خِلَالَ مُرُوجِهَا نَعْمُ وَشَاءُ
يُورِّقُنِي إِذَا ذَهَبَ الْعِشَاءُ
فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مِنْهَا شِفَاءُ
يَكُونُ مِرَاجِهَا عَسَلٌ وَمَاءُ

إلى أن يقوم في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) من هذه القصيدة الأبيات التالية: (1)

وَقَالَ اللَّهُ قَدْ يَسَّرْتُ جُنْدًا
شَهِدْتُ بِهِ وَقَوْمِي صَدَّقُوهُ
وَجَبْرِيْلُ أَمِينُ اللَّهِ فِينَا
هُمُ الْأَنْصَارُ غُرَضَتْهَا الْإِقَاءُ
فَقُلْتُمْ مَا نُجِيبُ وَمَا نَشَاءُ
وَرَوْحُ الْقُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

واختلف الدارسون في الحكم على القصيدة الجاهلية هل أنها إسلامية أم قيلت في زمنين، وكان الاختلاف حول تاريخ القصيدة، وكذلك جملة القضايا التي تناولها الشاعر فيها، وأسلوبه في عرضها، ومن أهم هذه القضايا لوحة الخمر وصورها الفنية الواردة في القصيدة (2)، وموضوعها في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) والدفاع عنه. وعلى العموم فإن هذه القصيدة وغيرها من القصائد مهدت لظهور موجة المدائح النبوية واستمرارها بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم).

وفي العصر الأموي ظهرت هاشميات الكميت، وشعره المسخر لمدح الهاشميين بنسبهم المتصل بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وطور الكميت المديح النبوي إذ خاطب العقل مثل العاطفة، ولكنه لم يكن مدحاً مختصاً بالرسول (صلى الله عليه وسلم) في قصائد خاصة (3) إذ توجه إلى مدح آل البيت بنسبهم إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) (4).

ومع بداية العصر العباسي بدأ ظهور التصوف يتصل بشعر المديح النبوي، ونظمت قصائد موضوعها الرئيس مدح النبي (صلى الله عليه وسلم) (5) وقد ظل التغني بخصال الرسول وفضائله متصلًا بآل البيت في

(1) المرجع السابق، ص 18

(2) علاوي، محمود، مدح النبي، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد (2) 2006م، ص 255.

(3) سالم، محمود، المديح النبوي حتى نهاية العصر المملوكي، مرجع سابق، ص 84.

(4) ضيف، شوقي، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، 1991م، ص 275.

(5) سالم، محمود، المديح النبوي حتى نهاية العصر المملوكي، مرجع سابق، ص 105.

أشعار الشيعة منذ عهد بني أمية يشاركونهم فيه كثير من الشعراء في العصر العباسي، وأخذ يضطرم في البيئات الإسلامية جميعها، وازداد قوة حين قامت الدولة الفاطمية في مصر، وسنت الدولة الفاطمية الاحتفال بالمواد النبوي، وكانت احتفالاتهم تنتشر فيها المدائح النبوية بكثرة، ولا يزال صداها مدويًا حتى يومنا هذا⁽¹⁾.

2. المدائح النبوية في العصر المملوكي:

وأما في العصر المملوكي فإن المدائح النبوية ازدهرت ازدهارًا يعد علامة فارقة في تاريخ المدائح النبوية. وقد أذكى المدائح النبوية وقوع الحروب الصليبية واتخاذها من الدين سلطة في مواجهة الإسلام، والهجمة الشرسة على المسلمين والطعن في دينهم. وبما أن الحروب باسم الدين سادت حاول الأدب أن يدافع وينافح عن صاحب رسالة الإسلام، وبرز مجموعة من الشعراء في هذا العصر يميلون إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقصائد تهتم بموضوع المديح النبوي الذي يستغرق القصيدة بطولها⁽²⁾.

وظهرت المدائح النبوية بقوة على الساحة الأدبية في فترة الحروب الصليبية، ونجد في هذه الفترة البوصيري الذي يعتبر أستاذًا وإمامًا في هذا العصر ويلاحظ هنا أن الحروب الصليبية والاضطهاد قادت أصحاب الفكر إلى ترويح السيرة المحمدية ورسالاته حيث تمكن المسلمون من العثور على الطمأنينة والعتور على الملجأ فيها ووجدوا فيها القدوة المثلى في مثل هذه الكوارث⁽³⁾.

وإن دواعي اتساع المديح النبوي ومسوغاته في العصر المملوكي كثيرة ومتنوعة والظروف السياسية والاجتماعية والدينية التي كانت سائدة آنذاك، وكانت كلها تدفع الشعراء إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) والإكثار من مدحه. والأدب يعكس الحياة، وشعراء المدح النبوي لم يكونوا في شعرهم بعيدين عن عصرهم ومجتمعهم، وإنما كانوا يجسدون حالاً

⁽¹⁾ الحمصي، نعيم، نحو فهم جديد لأدب الدول المتتابعة وتاريخه، جامعة تشرين، اللاذقية، سوريا، 1978م، ص219.

⁽²⁾ بدوي، أحمد، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، مرجع سابق، ص516-517.

⁽³⁾ إي، عبد الفواز، نشأة المدائح النبوية وتطورها: دراسة تحليلية، مجلة كيرالا، الهند، المجلد (5)، العدد (10)، 2017م، ص20.

موجودة تشغل الناس، وهي الاحتفال بالنبي (صلى الله عليه وسلم) والإشادة به في ظل ظروف الحرب والقهر، أو تعرض الدين لهجمة شرسة، ونبههم لافتراءات الغزاة وإفكهم، فكان لابد لهم من الرد، والانتصار لدينهم ونبههم، واستحضروا السنة النبوية والشمال النبوية وأشاعوها في حياتهم (1).

برزت الحروب الصليبية بشكل واضح على ساحة الفكر الديني فمواجهة الصليبيين لم تكن مواجهة عابرة، بل احتاجت إلى تمسك بالدين، وظهر المديح النبوي في إطار سعي المجتمع لتثبيت ركائز التدين فأخذ الشعراء يتذكرون مناقب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ودوره في إخراج البشرية من الظلمات إلى النور، وتنتج عن هذه الدعوات إصرار المسلمين على الصبر والثبات في مواجهة هجمات الصليبيين وعدوانهم ثم دحرهم وإيقاع الهزيمة بهم.

ولا تعد الحروب الصليبية الباعث الوحيد للمدائح النبوية فهناك عوامل أخرى أدت إلى انتشار المدائح النبوية وتطويرها. فهي دائمة الوجود في المناسبات الدينية والاحتفال بها في رأس السنة الهجرية أو المولد النبوي الشريف وغيرهما من المناسبات الدينية (2).

ولا يغفل الدارسون الإشارة إلى الأوضاع الاقتصادية الصعبة للمجتمع وما يتعرض إليه من الظلم والفساد من قبل السلطة الحاكمة ومن يقوم على أمرها. إنَّ هذه الأجواء المشحونة دفعت الشعراء نحو المدائح النبوية فهي من الوسائل التي تنجيهم من المصائب والويلات والكروب، وتدفع عنهم أذى الجائرين وسطوتهم وتخلصهم من نكد الدنيا (3).

وقد شهد العصر المملوكي على امتداده مصاعب لا حصر لها، وأزمات متلاحقة وعرف فيه الظلم الاجتماعي، وظل الصراع السياسي والعسكري على أشده بسبب الغدر الأوروبي والغزو المغولي، فبقي الناس في قلق

(1) إبراهيم، عزت ورسولي، علي، تداعيات المدائح النبوية على البيئة في العصر المملوكي، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، العراق، العدد (34)، 2017م، ص 31.

(2) جكلي، زينب، الشعر العربي في عصر الدول المتتابعة، دار الضياء، عمان، الأردن، 2004م، ص 40.

(3) رشيد، ناظم، المدائح النبوية في أدب القرنين السادس والسابع للهجرة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 1، 2002م، ص 79.

وضيق وترقب، وفي مثل هذه الأحوال تكثر الدعوات للإصلاح والتخفيف عن الناس بطرق شتى، منها الشعر الذي ينتشر بين الناس وينتقد الحكام والذي يظهر مواطن الخطأ في المجتمع⁽¹⁾. واهتمت المدائح النبوية في العصر المملوكي بالإتيان بما فيه مصلحة الناس بتذكيرهم بسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) العظيمة، وخصالة الحميدة ويدعم ذلك البنية الصوفية التي احتضنت المديح النبوي واتخذت منه شعارًا لها.

وللمديح النبوي في العصر المملوكي تجاذبات في دواعي المديح حيث قدم سلاطين المماليك تشجيعهم للشعراء وترغيبهم به وظهر المداحون المتكسبون، وهناك من كان يمدح الرسول بصدق وعاطفة جياشة ومن كبار المداحين في العصر المملوكي ابن نباتة المصري والبوصيري. وقد شاعت فيه ألوان كالبديعيات والمعارضات، وظهر عصر الغلو إذ أسرف فيه بعض المتصوفة من الشعراء متأثرين بمجموعة من أعلام التصوف⁽²⁾.

مرّ مدح النبي (صلى الله عليه وسلم) بمراحل عدة، فصفت النبي (صلى الله عليه وسلم) ذكرها المسلمون في المراحل الأولى من الدعوة، ثم ذكرها غير المسلمين، ومع مرور الزمن وظهور صدر الإسلام بدأ الدفاع عن الإسلام يتضمن الثناء على النبي (صلى الله عليه وسلم) ومجيئه لإنقاذ الناس من الظلمات إلى النور، وتوالت الأجيال اللاحقة من المسلمين في ذكر سيرته العطرة، وتبع ذلك في العصر المملوكي وازدهر (مدح النبي صلى الله عليه وسلم) واستمر حتى كثر عدد شعرائها بين أهل التصوف.

المبحث الثالث: أثر التصوف في شعر المدائح النبوية في العصر المملوكي

⁽¹⁾ إبراهيم، عزت ورسولي، علي، تداعيات المدائح النبوية على البيئة في العصر المملوكي، مرجع سابق، ص32.

⁽²⁾ دهداري، فراس، الموازنة بين المديح النبوي في عصر صدر الإسلام والعصر المملوكي، مجلة الكلية الإسلامية، الجامعة الإسلامية، العدد (214)، 2019م، ص715.

طبعت الروح الدينية مجمل النشاط الأدبي والفكري في العصر المملوكي، وقد ظهر ذلك من خلال التصوف وشعر المديح النبوي، وقد شاع ذلك في معظم الأمصار الإسلامية في تلك الحقبة، ولعل النزاعات السياسية والغزو الخارجي كان سببًا حاسمًا نتج عنه هذا الطابع⁽¹⁾، وقد تضمن العديد من الأغراض مثل النصيحة والتضحية وطلب الرضا، والوعظ والإرشاد، والاستغاثة بالرسول (صلى الله عليه وسلم)، وبيان الحقيقة المحمدية،

1. إظهار المحبة والتضحية وطلب الرضا في المدائح النبوية الصوفية

إن التصوف يعني في حقيقته الإيثار والتضحية، فالصوفي يضحي بكل ملذات الدنيا يطلب الأجر والثواب من الله، وفي سبيل تحقيق محبة الله، ويميل أهل التصوف إلى الزهد في الدنيا الفانية وإيثار الآخرة الباقية. والتصوف بعيدًا عن المغالاة فيه تربية للنفس، ورياضة روحية تسمو بصاحبها.

ويحرص المتصوف على النصح والإرشاد، وقد جاءت أشعار أهل التصوف للوعظ والإرشاد من أجل حفظ النفس ومنعها من التماهي في الزلل والخطأ، ويفيض هذا الشعر عاطفة جياشة من المتصوف، يريد أن يحمي الآخر من الآفات، ويخاطب نفسه الصوفي قبل أن يقع في نصيحة الآخرين، فالخطاب يصلح أن يكون خطابًا للذات ينصح النفس، ويصلح أن يكون خطابًا للآخر، يقول البوصيري⁽²⁾:

إلى متى أنت باللذاتِ	وأنت عن كل ما قدّمتِ
مَشْغُولٌ	مَسْؤُولٌ
في كلِّ يومٍ تُرَجِّي أن	وَعَقْدُ عَزْمِكَ بالتَّسْوِيفِ
تتوب غداً	مَخْلُولٌ
أما يُرَى لك فيما سرَّ منْ	يَوْمًا نَشَاطٌ وَعَمَّا سَاءَ
عَمَلٍ	تَكْسِيلٌ
فَجَرِّدِ الْعَزْمَ إِنَّ الْمَوْتَ	مُجَرِّدُ بَيْدِ الْأَمَالِ مَسْئُولُ

⁽¹⁾ فريخ، عثمان، المديح النبوي في العصر المملوكي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية. المجلد (1)، العدد (6)، 1993م، ص223.

⁽²⁾ البوصيري، محمد بن سعيد (ت: 696هـ)، ديوانه، تحقيق محمد سيد الكيلاني، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط3، 1973م، المقدمة، ص220.

صارمُهُ

واقطع جبال الأمانِي التي فإِنَّمَا حَبَلُهَا بِالرُّورِ مَوْضُولُ
اتَّصَلَتْ

أَنْفَقْتَ غُمْرَكَ فِي مَالٍ وَمَا عَلَى غَيْرِ إِيْمٍ مِنْكَ
تَحَصَّلُهُ

وَرُحْتَ تَعْمُرُ دَاراً لَا بَقَاءَ وَأَنْتَ عَنْهَا وَإِنْ غُمِّرَتْ
لَهَا

جَاءَ النَّذِيرُ فَشَمَّرَ لِلْمَسِيرِ مَهْلٍ فَلَيْسَ مَعَ الْإِنْذَارِ
يَلَا

ويتناول البوصيري موضوعات عدة إلى أن يصل بقصيدته إلى قوله
مادحاً رسول الله (صلى الله عليه وسلم):

والمُصْطَفَى خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ لَهُ عَلَى الرُّسُلِ تَرْجِيحٌ وَتَفْصِيلُ
كُلِّهِمْ
مُحَمَّدٌ حُجَّةُ اللَّهِ الَّتِي طَهَّرَتْ بِسُنَّةِ مَا لَهَا فِي الْخَلْقِ تَحْوِيلُ
تَجَلُّ الْأَكَارِمِ وَالْقَوْمِ الَّذِينَ لَهُمْ عَلَى جَمِيعِ الْإِنَامِ الطُّولُ
وَالطُّولُ

إنَّ الأبيات الأولى من هذه القصيدة فيها رياضة صوفية تقوم على
تحذير النفس من الغرق في ملذات الدنيا، وتحث العبد على التوجه إلى
الله، والمبادرة إلى التوبة؛ لأن الموت له ساعة آتية ولكنها غير معلومة
الميعاد. تدعوه إلى أن يترك التأجيل والتسويف، فهو لا يعلم موعد الرحيل.
فالعلاقة بين الشعر والتصوف متقاربة متلاصقة فهما يصدران عن
معالم روحية خفية، إن في خفاء الروح صفات تجمع بين الشعر والتصوف
"وهناك وشائج تجمع بين التصوف والفن بشكل عام وبينه وبين الشعر
بشكل خاص، هذه الوشائج تتمثل في أن كليهما يحيل إلى العاطفة
والوجدان⁽¹⁾، في العمل الصادر عنه. فالبوصيري في مديحه يضطلع من
نفسه مخاطب يحاوره، وينصح، وهو بهذه الطريقة يدرب النفس على
المحاسبة والمراجعة لتكون النفس أكثر نقاء، وعلى استعداد دائم للرحيل.
ومن الخصائص الصوفية الإيثار والتضحية، وتظهر هذه الخصيصة بشكل
واضح في قول البوصيري في الأبيات السابقة

⁽¹⁾ حيدر، علي، أثر سياسة الدولة المملوكية في شيوع التصوف، مجلة جامعة تشرين
للبحوث والدراسات، سوريا، المجلد (12)، العدد (2)، 1990م، ص131.

أَنْفَقْتَ غُمْرَكَ فِي مَالٍ **وَمَا عَلَى غَيْرِ إِيْمٍ مِنْكَ**
تَحَصَّلُهُ **تَحْصِيلُ**
وَرَحْتَ تَعْمُرُ دَاراً لَا بَقَاءَ **وَأَنْتَ عَنْهَا وَإِنْ غُمِّرَتْ**
لَهَا **مَنْقُولُ**
جَاءَ التَّذِيرُ فَشَمَّرَ لِلْمَسِيرِ **مَهْلٍ فَلَيْسَ مَعَ الْإِنْدَارِ**
بِلا **تَمْهِيلُ**

وتتضح التضحية في الدنيا الزائلة فيلوم الشاعر نفسه على الإهمال عن الآخر بتحصيل المال، ويزهد فيه على الرغم من أنه على غير إيم، ويعاقب النفس على تنكبها الطريق بالبحث عن عمارة الدنيا وهي دار الفناء. فالشاعر يشير إلى أن العمل يجب أن يكون لعمارة دار البقاء. والمدائح النبوية لم يقف أثر التصوف فيها عند الوعظ والنصح الذي ظهر فيها بقوة وإنما أثر التصوف بالمديح النبوي، فأدخل المتصوفة طلب المحبة والرضا بما يكون في القضاء والقدر، ويقول الحافظ المحدث شمس الدين أبو المعالي ابن القماح المتوفي سنة 741هـ:

اصبر على حلو القضاء **وأعلم بأن الله بالغ أمره**
ومره
وأثبت فكم أمر أمضك **ليلاً فبشرك الصباح يسره**
عسره
واضرع إلى الله الكريم ولا **بشرًا فليس سواه كاشف**
تسل **ضره**

وهو يدعو إلى الرضا بكل ما يأتي به القضاء من حلو مر، فتلك إرادة الله، ولا راد لأمره، وينصح بالثبات حتى تتكشف ظلمة الغمة وتسفر عن بشرى مضيئة ضوء الصباح، وأن يلجأ الإنسان إلى ربه ويضرع إليه، فهو وحده كاشف الغم ومفرج المحن⁽¹⁾.

إنَّ أبيات الحافظ المحدث والبوصيري فيها عتاب للنفس على الإسراف في الملذات، وإنكار لغضب النفس أو ما فيها من علة الرضا بما بقدره الله، فهذه الحياة فانية زائلة، وإنما هي طريق يقود الإنسان نحو الآخرة الباقية. فالمعاني الدينية ضمن المدائح النبوية تتصل بحقيقة الدوافع الإصلاحية

⁽¹⁾ ضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات: مصر، مرجع سابق، ص 346.

لشعر المدائح النبوية لمواجهة الانحدار الذي أصاب الحياة في العصر المملوكي والذي ولد لدى بعضهم شعورًا بالضيق⁽¹⁾. فحاول المصلحون أن يذكروا الناس بماضيهم، وصفات نبهم مع وعظهم وإرشادهم.

2. توظيف المدائح النبوية في الاستغاثة والتوسل بالرسول (صلى الله عليه وسلم):

يستغل أهل التصوف المدائح النبوية للاستغاثة والتوسل بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وقد شاع في العصر المملوكي التوسل بالرسول (صلى الله عليه وسلم) والاستنجاد به من الكروب التي عمّت الناس، وشاعت رؤيا النبي الكريم في المنام، وانشغل الفقهاء بهذه الرؤيا، وخاصة في أخذ الرائي بما يؤمر به في المنام، وكان الناس يتجهون إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالتوسل عند كل ملّة تكربهم والمدائح النبوية حافلة بمثل هذا التوسل، وهذا يعني تأثر الناس بالمدائح النبوية⁽²⁾. وأهل التصوف يشيع عندهم التوسل والتشفع برسول الله (صلى الله عليه وسلم).

والحديث في حكم الشفاعة والتوسل لا تبحث فيه هذه الدراسة من الناحية الفقهية، وإنما تذكره من باب أثر التصوف في شعر المدائح النبوية في العصر المملوكي، ويذكر ابن عربشاه في أهمية المدح النبوي الذي أصبح وسيلة من وسائل التشفع والاستغاثة والرجاء برسول الله⁽³⁾:

وقد شكوت إلى طبيب

علتي

وصف الطبيب شراب مدح

المصطفى

ومن هذه الاستغاثات قول محمد بن أبي الحسن البكري:

يا أكرم الخلق على ربه

وخير من فيهم به يسأل

قد مسنا الكرب وكم مرة

فرّجت كربا بعضه يذهل

⁽¹⁾ حيدر، علي، أثر سياسة الدولة المملوكية في شيوع التصوف، مرجع سابق، ص 132.

⁽²⁾ إبراهيم، عزت ورسولي، علي، تداعيات المدائح النبوية على البيئة في العصر المملوكي، مرجع سابق، ص 33

⁽³⁾ ابن عربشاه، شهاب الدين (ت: 854هـ)، ديوانه، دار المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، 1976م، ص 97.

ويضيف في استغاثاته بالرسول إلى تفريخ الكروب عنه وإقالته من
عثراته الشفاعة له من ذنبه يوم المحشر بما أوتي من محبة الله⁽⁴⁾. ويشبهه
بأنه باب يلج منه العبد ، فهو يعبر عن قرب الرسول (صلى الله عليه وسلم)
من ربه ومكانته الكريمة ومنزلته العظيمة.

إنّ هذا الشعر بما فيه من استغاثة بالرسول (صلى الله عليه وسلم)
كثر عند بعض أهل التصوف، ويمكن أن نفهم من طبيعة العصر المملوكي
وما فيه من تضيق على أهل الأمصار والانشغال بالحروب والتكالب على
السلطة جعل الناس ينصرفون عن الدنيا وينشغلون بكل ما يذكرهم بدينهم
فتوجه بعض الشعراء مستذكرين شفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم)
ويذكرون شفاعته للناس، ومن فرط حبه لهم له صاروا يتوسلون به في
أشعارهم.

3. الحقيقة المحمدية في الشعر الصوفي في العصر المملوكي:

من القصائد التي أدخلها أهل التصوف في شعر المدائح النبوية ما
يعرف بالحقيقة المحمدية، ويقول ابن عربي " والحقيقة المحمدية الأولية،
الكلية، العلية، النورانية، التي هي أول موجود جد عن الذات العلية، وتعرف
أيضًا بالنور المحمدي، حقيقة محمد الدرة البيضاء، والإنسان الكامل، وهي
جزء من نظريته الشاملة (الكلمة) فهو يرى الموجودات كلها كلمات الله التي
لا تنفذ فإنها عن كن، وترمز كلمة كن القولية على العقل الإلهي، أما كلمة
التكوين فهي الحقيقة المحمدية"⁽¹⁾.

وصور البوصيري " أزلية النور المحمدي المعنوي لب الوجود وروحه
وكان للرسول وجودين هذا الوجود المعنوي الذي يستمد منه الكون وجوده
والذي تعاقب الأنبياء منذ آدم، ووجود ثان حسي مادي هو وجوده حين ولد
ثم بعث بشيرًا ونذيرًا، وبذلك اتحد المعنى والصورة أو قل الحقيقة
المحمدية الأزلية وصورة الإنسان"⁽²⁾، وفي ذلك يقول⁽³⁾:

مُحَمَّدٌ حُجَّةُ اللَّهِ الَّتِي طَهَّرَتْ بِسُنَّةِ مَا لَهَا فِي الْخَلْقِ تَحْوِيلُ
تَجَلُّ الْأَكَارِمِ وَالْقَوْمِ الَّذِينَ لَهُمْ عَلَى جَمِيعِ الْأَنَامِ الطَّلُولُ

⁽⁴⁾ ضيف شوقي، عصر الدول والإمارات: مصر، مرجع سابق، ص 367.
⁽¹⁾ بولعشار، مرسلي، الشعر الصوفي في ضوء القراءات النقدية الحديثة - ابن الفارض نموذجًا -، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران، الجزائر، 2015م، ص 62.

⁽²⁾ ضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات: مصر، مرجع سابق، ص 363.

⁽³⁾ البوصيري، محمد بن سعيد، ديوانه، مرجع سابق، ص 274.

وَالطُّولُ
مَنْ كَمَلَ اللَّهُ مَعْنَاهُ وَصَوَّرَتْهُ
فَلَمْ يَفُتْهُ عَلَى الْحَالَيْنِ تَكْمِيلُ
وَحَصَّهُ بِوَقَارٍ قَرَّ مِنْهُ لَهُ
وَتَبَجِيلُ
بَادِي السَّكِينَةِ فِي سُخْطٍ لَهُ
وَرِضًا
مِنْ آدَمٍ وَلِحَيْنِ الْوَضْعِ جَوْهَرُهُ
ال
فَلِلنُّبُوَّةِ إِتْمَامٌ وَمُتَبَدِّأٌ
مَحْمُولُ
مَكُونُ فِي أَنْفَسِ الْأَصْدَافِ
بِهِ وَلِلْفَخْرِ تَعْجِيلٌ وَتَأْخِيلٌ

تظهر هذه الأبيات التوجه الصوفي عند البوصيري في إدراج مفهوم الحقيقة المحمدية في المدائح النبوية، فالرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) حقيقة أزلية من آدم ولحين مولده، وتنقله بين الأكارم من آبائه وأجداده. وعندما نذكر هذه الأمثلة على أثر التصوف في شعر المديح فإن ذلك من قبيل الدراسة الأدبية التي تحدد فيها الأثر ونذكر شواهد وكيف تمثل في الشعر، بعيدًا عن النقد الديني أو الرأي في العقيدة من حيث الصحة والخطأ.

وجاء في شعر المدائح النبوية هجاء اليهود والنصارى ومن ذلك قول البوصيري⁽¹⁾:

ما بال من غضب الإله عليهم
عبدوا وموسى فيهم العمل
حادوا عن الحق المبين ونكبوا
ذبحوا به ذبح العجول وعذبوا
الذي

وصنوا إلى الأوثان بعد وفاته
والرسل من أسف عليهم تندب
 إن ذكر اليهود والنصارى في شعر المدائح النبوية يذكر المسلمين بالماضي القديم الذي تجلى فيه اتباع الرسل عن طريق الحق، واتباعهم لطريق الضلال وكل ذلك كان سبيله الضياع والانحراف، والوقوع في المعاصي. وأشد من ذلك ترك العقيدة الصحيحة والفطرة السليمة. فقد عبد اليهود العجل ورسول الله موسى (عليه السلام) بين ظهرائهم.

ومن ذلك قوله في موضع آخر مذكراً بيوم القيامة وما سيحل به من ربح وخسران⁽²⁾:

حَتَّى إِذَا بَعَثَ اللَّهُ الْعِبَادَ إِلَى
يَوْمٍ بِهِ الْحُكْمُ بَيْنَ الْخَلْقِ

⁽¹⁾ البوصيري، محمد بن سعيد، ديوانه، مرجع سابق، ص 93.

⁽²⁾ المرجع السابق، ص 273.

مَفْضُولُ تَخَالَفَتْ بَيْنَنَا مِنْهَا الْأَقَاوِيلُ فِي طَيِّهَا لِئُشْوِرَ الْخَلْقُ تَعْطِيلُ لَهَا التَّصَاوِيرُ يَوْمًا وَالْتَّمَائِيلُ فَنَالَهَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعْجِيلُ	تَبَيَّنَ الرِّيحُ وَالْخُسْرَانُ فِي أُمَمٍ فَأَخْسَرُ النَّاسِ مَنْ كَانَتْ عَقِيدَتُهُ وَأُمَّةٌ تَعْبُدُ الْأَوْتَانَ قَدْ نُصِبَتْ وَأُمَّةٌ ذَهَبَتْ لِلْعَجْلِ عَابِدَةً
---	--

يتحدث الشاعر عن الأمم التي حادت عن طريق الصواب ووقعت في الشرك وغرقت في الأهواء. ويذكر أن الفاصل بين الخلق هو يوم القيامة. وبذلك يذكر الشاعر أنباء المسلمين قبل غيرهم بأن يوم القيامة يوم حساب وعقاب. يعاقب فيه الإنسان الذي يتخلى عن طريق الحق. ويذكرهم أيضًا بالمعتقد الصحيح الذي جاء به الرسول (محمد صلى الله عليه وسلم) فهو طريق النجاة والريح.

لقد شهدت المدائح النبوية تطورات كبيرة في المضامين في العصر المملوكي بتأثير أهل التصوف وأفكارهم التي ترجموها في أشعارهم، وتأثر بها الناس وشكلت عقيدة عند العامة الذين رددوا هذه الأشعار وحفظوها وعملوا بمقتضاها ولم يكن التأثير الصوفي على مستوى الإبداع الشعري بل حل تأثيره في الفكر في العصر المملوكي.

الخاتمة

قدمت الدراسة تصورًا لأثر التصوف في شعر العصر المملوكي في القرن السابع الهجري، وتجدر الإشارة إلى أن المديح النبوي بدأ في فترة مبكرة من بزوغ فجر الإسلام، بذكر صفات الرسول (صلى الله عليه وسلم) على لسان الشعراء من الصحابة. وامتد المديح النبوي في العصر الأموي مع هاشميات الكُميت، ولكنه بقي مديحًا في إطار مدح آل البيت، وامتزج في العصرين العباسي والفاطمي مع مدح الخلفاء. وبذلك يمكن أن نصف المديح النبوي بأنه لم يتبلور فنًّا مستقلًّا ومذهبًا يقصده الشعراء لغايته.

برزت المدائح النبوية في العصر المملوكي فنًا أدبيًا، وظهر أثر التصوف في المدائح النبوية فكرًا ولغة، وظهرت آراء المتصوفة ومعتقداتهم في المدائح النبوية مثل الوعظ والإرشاد، والتوسل والاستغاثة بالرسول (صلى الله عليه وسلم). في ضوء ما تقدم، يمكن التوصل لمجموعة من النتائج على النحو التالي:

- بدأ المديح النبوي منذ فجر الإسلام بذكر صفات الرسول (صلى الله عليه وسلم) على لسان الشعراء المسلمين وغيرهم.
- امتد المديح النبوي في عصر صدر الإسلام وتبع ذلك أسلوب الدفاع عن الإسلام ومواجهة الأعداء.
- تحول المديح في العصر الأموي مع هاشميات الكميت، ولكنه بقي مديحًا لآل البيت. وفي العصر العباسي والفاطمي ظل ممزوجًا مع مدح الخلفاء.
- يعد العصر المملوكي عصر الازدهار للمدائح النبوية.
- أثر التصوف بالمدائح النبوية فكرًا ولغةً.
- ظهرت آراء المتصوفة ومعتقداتهم في المدائح النبوية ومنه: الوعظ والإرشاد، والتوسل والاستغاثة بالرسول، والإيثار والتضحية والزهد في الدنيا، والحقيقة المحمدية عند المتصوفة. وغيرها من الأفكار الصوفية التي انتشرت عبر الشعر بين فئات المجتمع في العصر المملوكي.

المراجع

- إبراهيم، عزت ورسولي، علي، تداعيات المدائح النبوية على البيئة في العصر المملوكي، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، العراق، العدد (34)، 2017م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن (ت: 597هـ)، تلبيس إبليس، دار الفكر العربي للنشر، بيروت، لبنان، 2001م.
- ابن عربشاه، شهاب الدين (ت: 854هـ)، ديوانه، دار المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، 1976م.
- ابن، ثابت، حسان (ت: 674م)، ديوانه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1994م.
- إي، عبد الفوز، نشأة المدائح النبوية وتطورها: دراسة تحليلية، مجلة كيرالا، الهند، المجلد (5)، العدد (10)، 2017م.
- بدوي، أحمد، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط 2، د.ت.
- البوصيري، محمد بن سعيد (ت: 696هـ)، ديوانه، تحقيق محمد سيد الكيلاني، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط 3، 1973م.
- بولعشار، مرسللي، الشعر الصوفي في ضوء القراءات النقدية الحديثة -ابن الفارض نموذجًا-، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران، الجزائر، 2015م.

جكلي، زينب، *الشعر العربي في عصر الدول المتتابعة*، دار الضياء، عمان، الأردن، 2004م.

الحمصي، نعيم، *نحو فهم جديد لأدب الدول المتتابعة وتاريخه*، جامعة تشرين، اللاذقية، سوريا، 1978م.

حيدر، علي، *أثر سياسة الدولة المملوكية في شيوع التصوف*، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات، سوريا، المجلد (12)، العدد (2)، 1990م.

خفاجي، عبدالمنعم، *الأدب في التراث الصوفي*، مكتبة غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1994م.

دهداري، فراس، *الموازنة بين المديح النبوي في عصر صدر الإسلام والعصر المملوكي*، مجلة الكلية الإسلامية، الجامعة الإسلامية، العدد (214)، 2019م..

رشيد، ناظم، *المدائح النبوية في أدب القرنين السادس والسابع للهجرة*، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2002م.

سالم، محمود، *المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي*، دار الفكر المعاصرة، بيروت، لبنان، ط1، 1999م.

شعبان، محمد، *التصوف الإسلامي: مدارسه، رموزه، أدبه*. مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2016م.

الصالح، أنعم، *التجربة الصوفية: دراسة في ضوء العلوم العصبية*، مجلة المجمع العراقي، المجلد (4)، العدد (44)، 1997م.

ضيف، شوقي، *التطور والتجديد في الشعر الأموي*، دار المعارف، القاهرة، 1991م.

ضيف، شوقي، *تاريخ الأدب العربي: عصر الدول والإمارات: الشام*، دار المعارف للطباعة، القاهرة، 1990م، ط2.

طعيمة، صابر، *التصوف والتفلسف، الوسائل والغايات*، مكتبة مدبولي للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2005م.

الطويسى، السراج (ت: 378هـ)، *اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي* (تحقيق: كامل الهنداوي)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2001م.

عبد الحكيم، حسان، *التصوف في الشعر العربي: نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري*، دار العرب للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2010م.

العشي، علي، *التصوف والعرض الصوفي*، مجلة جرش للبحوث والدراسات، جامعة جرش، المجلد (3)، العدد (2)، 2003م.

العشي، سعاد، *ماهية التصوف: دراسة نقدية تحليلية*، مجلة كلية التربية، جامعة عين شمس، المجلد (1)، العدد (1)، 2015م.

علاوي، محمود، مدح النبي، *مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية*، العدد (2) 2006م.

عيد، صلاح، *مديح الرسول في فجر الإسلام*، دار المعرفة، القاهرة، 1975م. غراب، سعيد، *شعر المناسبات الدينية ونقد الواقع المعاصر*، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007م.

فريح، عثمان، *المديح النبوي في العصر المملوكي*، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية. المجلد (1)، العدد (6)، 1993م.

القشيري، النيسابوري (ت: 261هـ)، *الرسالة القشيرية في علم التصوف* (تحقيق: معروف زريق وعلي عبد الحميد)، دار الخبرة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1993م.

القبوڤري، الأخضر، *الفكر التربوي الصوفي: قراءة في التراث التربوي عند أعلام مشايخ التصوف الإسلامي*، دار نينوى للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، 2010م.

الكلاباذي، أبو بكر (ت: 384هـ)، *التعرف لمذهب أهل التصوف* (تحقيق: أحمد شمس الدين)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج3، 1993م.

لامعي، أحمد، *المدائح النبوية في عصر المماليك البحرية*. أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة القديس يوسف، بيروت، 2007م.

مبارك، زكي، *المدائح النبوية*، دار الحجة البيضاء، القاهرة، د.ت. مخيمر، صالح، *المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري*، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1986م.

ولد البشير، محمد، التصوف الإسلامي المصادر والمؤثرات، دورية كان
التاريخية، مؤسسة كان، الكويت، العدد (33)، 2016م.